«٣»

عبدالله بن يحيى الكندي

نذر الثورة - الخروج على بني أمية - الزحف إلى صنعاء - إلى أم القرى - معركة قديد - نجدة دمشق - طالب الحق في المعركة - الجيش الأموي في شبام - رثاء طالب الحق

❖ نذر الثورة:

إذا طوينا القرون القهقرى فأتينا إلى دمشق عاصمة الخلفاء من بني أمية حيث بويع لآخر خليفة أموي هو مروان بن محمد الجعدي سنة ١٢٧هـ وجدنا الفتن والاضطرابات قد أقلقت مركز الخلافة فقد ماج العالم الإسلامي بالثورة وانتشرت الفوضى في ممالك الدولة وضرب الفساد والظلم أطنابه.

وإذا انتقلنا من عاصمة الأمويين إلى حضرموت وجدنا شاباً حادّ الذكاء بعيد النظر فصيحاً بليغاً شجاعاً كريماً على جانب عظيم من الورع والصلاح والتقوى، ذلك هو عبدالله بن يحيى الكندي أحد بني عمرو بن معاوية، وقد حدّث عن نفسه فقال:

«لقيني رجل فأطال النظر إلي فقال: ممن أنت؟ قلت: من كندة، قال: من أيهم؟ قلت: من بني شيطان، قال: والله لتملكن ولتبلغن خيلك وادي القرى وذلك بعد أن تذهب إحدى عينيك، فذهبت أتخوف ما قال وأستجير الله فرأيت باليمن جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس قبيحة، فقال

لأصحابه: ما يحل لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه.

❖ الخروج على بني أمية:

وكتب عبدالله بن يحيى إلى جماعة من زعماء الإباضية بالبصرة شركائه في المذهب والعقيدة يشاورهم في الخروج على الخليفة الأموي فكتبوا إليه:

إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة من عباده يبعثهم إن شاء لنصرة دينه ويختص بالشهادة منهم من يشاء.

وإجابة لطلب عبدالله بن يحيى قدم إليه من البصرة جماعة من الإباضية على رأسهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلج بن عقبة السقوري فحثوه على الخروج.

وقد تم لعبدالله بن يحيى الانقلاب الذي أراده في حضرموت دون أن يريق في سبيله دماً، فقد بويع بالخلافة سنة ١٢٩هـ وأمر بحبس إبراهيم بن جبلة عامل بني أمية في حضرموت، وكان يقيم بدمون ثم أطلقه حيث لحق بصنعاء، وبذلك فصل حضرموت عن دمشق عاصمة الخلافة واستأثر فيها بالسلطة وانصرف إلى إصلاح شؤون البلاد، فنشر الأمن وحقق العدل وبنى المساجد وأطعم الفقراء فأحبه الناس والتفوا حوله وهابته القبائل وأكبروا همته وطموحه وسموه طالب الحق.

❖ الزحف إلى صنعاء:

لم تكن ثورة «طالب الحق» تهدف إلى تخليص حضرموت من حكم الأمويين فحسب بل كان يطمح إلى أبعد من ذلك، فقد أعد العدة لغزو اليمن والحجاز والقضاء على سلطان بني أمية فيهما ونشر الأمن والعدل في ربوعهما ومن يدري؟ فربما كان يفكر في غزو الشام ومحاربة الخليفة الأموي في عقر داره.

ففي ذلك العام الذي أعلن الكندي فيه ثورته أي عام ١٢٩هـ توجه بألفي مقاتل من أبطال الحضارم ومن أنصاره إباضية البصرة إلى صنعاء عاصمة اليمن وأناب عنه في حضرموت عبدالله بن سعيد الحضرمي ولم يكد خبر هذا الزحف يصل إلى القاسم بن محمد عامل مروان على صنعاء حتى تأهب للقاء الثائر الكندي وخرج من صنعاء في عدة آلاف بعدما استخلف عليها الضحاك بن زمل.

والتقى الجيشان في الطريق إلى صنعاء في موضع يقال له «بلج» وكان الليل قد أظلم فلم ينتظروا بالقتال إلى الصباح، واصطدم الجيشان في معركة دامية استمات فيها جيش الكندي وأبلى بلاء حسناً حتى تم له النصر، وأسفرت المعركة عن هزيمة شنيعة بعامل صنعاء، وتفرق جيشه الكثيف تاركاً وراءه كثيراً من القتلى.

واستطاع عامل صنعاء أن يجمع فلول جيشه وينظم شتاتهم ويعسكر بهم قريباً من صنعاء، فلحقهم الكندي وهجم عليهم أعنف هجوم لم يستطيعوا الثبات معه فانهزموا شر هزيمة ولم يتمكنوا من الدفاع عن صنعاء، فدخلها طالب الحق ظافراً منتصراً واستولى عليها وجمع ما فيها من الخزائن والأموال، وأسر عاملها الضحَّاك بن زمل كما أسر إبراهيم بن جبلة الكندي عامل دمون الذي طرد من حضرموت، ثم قصد المسجد وصعد المنبر يخطب في الناس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام:

«أيها الناس: إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالاً، لا نبتغي به بديلاً، ولا نشتري به ثمناً قليلاً، وحرَّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ندعوكم إلى فرائض بينات، وآيات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعو

إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيد والوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله.

أيها الناس: إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الألم في جنب الله، يقتلون على الحق شهداء فما نسيهم ربهم وما كان ربك نسياً، أوصيكم بتقوى الله، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به، فأبلوا الله بلاء حسناً في أمره وذكره، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».

وقد أقام «طالب الحق» في صنعاء بعد ذلك أشهراً أزال في خلالها المظالم ونشر العدل وأحسن السيرة، وقصده الشعراء ومدحوه، وأتته سادات القبائل من كل أرجاء اليمن.

❖ إلى أم القرى:

في أواخر ذي القعدة من سنة **١٢٩**هـ اختار طالب الحق جماعة من أبطال جيشه وجهزهم إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار، فتحرك هذا الجيش من صنعاء قاصداً الحجاز، فقدمها والناس متهيئون للحج، فعسكر أبو حمزة بجيشه خارج مكة، وجرى بينه وبين أمير مكة عبدالواحد بن سليمان مفاوضات انتهت بموافقة أبي حمزة على أن لا يحدث حدثاً حتى يقضي الحاج عمله خشية إزعاج حجاج بيت الله، وبعد أن انقضت أعمال الحج خرج عامل مكة منها متجهاً إلى المدينة لأنه رأى أن لا فائدة في الدفاع، فسلمها إلى أبي حمزة بدون قتال.

بعد أن قدم عبدالواحد بن سليمان إلى المدينة كتب إلى مروان يخبره بما حدث، ويعتذر لخروجه من مكة، فكتب مروان إلى عامله بالمدينة يأمره بالمسير لقتال جيش الثائر الكندي، فخرج في ثمانية آلاف رجل قاصداً مكة، وخرج أبو حمزة المختار في أبطال كندة وتميم وغيرهم بعد أن استخلف على مكة إبراهيم بن الصباح.

❖ معركة قديد:

والتقى الجيشان في طريق المدينة بموضع يقال له «قديد»، وكان عدد الجيش الأموي يفوق جيش أبي حمزة أضعافاً مضاعفة، وأمر أبو حمزة جيشه أن لا يقاتلوا حتى يبدأهم الجيش الأموي بالقتال حقناً لدماء المسلمين، فلم يحدثوا حدثاً حتى رمى أحد الجنود الأمويين أبا حمزة المختار بسهم فأخطأه وأصاب رجلاً آخر، فقال أبو حمزة: شأنكم الآن فقد حل قتالهم.

واشتبك الجيشان في معركة شديدة حامية الوطيس انكشفت عن انهزام الجيش الأموي وقتل ألفين ومائتين وثلاثين منهم وتفرق الباقون تاركين المدينة المنورة أمام جيش أبي حمزة فدخلها على رأس جيشه بعد أن تم له النصر، ثم قصد المسجد وقام في الناس خطيباً وكان من جملة ما قال:

«إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا غدراً، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعُنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله، ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض، أقبلنا من قبائل شتى كل جماعة منا على بعير واحد عليه زادهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخواناً، ثم لقينا رجالكم بـ«قديد» فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان، فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين».

❖ نجدة دمشق:

اتصل بمروان نبأ احتلال المدينة فجهز أربعة آلاف فارس من أهل الشام استعمل عليهم عبدالملك بن عطية السعدي وأمره بالجد في السير

وأعطى كل رجل من أصحابه مائة دينار وفرساً عربياً وبغلاً لثقله ومتاعه، فلما كانوا بموضع يقال له «المعلى» بعث أبو حمزة جيشاً لقتالهم مؤلفاً من ستمائة رجل تحت قيادة بلج بن عقبة، فالتقى الجيشان بوادي القرى لأيام خلت من جمادى الأولى سنة مائة وثلاثين للهجرة.

دعاهم بلج إلى الكتاب والسنة وذكر بني أمية وظلمهم فأسمعوه ما يكره، فحمل عليهم بلج وأصحابه فانهزمت طائفة من أهل الشام وثبت ابن عطية وقال: ناضلوا عن دينكم وأميركم فكروا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، فقتل بلج وأكثر أصحابه وانحازت بقية منهم نحو المائة إلى جبل اعتصموا به فقاتلهم ابن عطية ثلاثة أيام، فقتل منهم سبعون رجلاً ونجا ثلاثون، فرجعوا إلى أبي حمزة.

عند ذلك خرج أبو حمزة من المدينة قاصداً مكة وولى عليها رجلاً يقال له المفضل، فثار عليه عمر بن عبدالرحمن من أحفاد زيد بن الخطاب في كثير من البربر والزنج والعبيد، فقتل المفضل وقتل معه عامة أصحابه، ودخل ابن عطية المدينة دون أن يلقى قتالاً.

أقام ابن عطية بالمدينة شهراً وأبو حمزة مقيم بمكة، ثم توجه إليه ابن عطية، وفرق أصحابه فرقتين: نزلت إحداهما بالأبطح ونزل هو في الفرقة الأخرى محاذياً لأبي حمزة، وكان أبو حمزة قد عسكر بأسفل مكة وعسكر أبرهة بن الصباح بالأبطح في ثمانين فارساً، ونشب القتال بين أبرهة وأهل الشام فهزمهم وفروا هاربين إلى عقبة منى، ثم كروا مرة أخرى وقاتلوا قتالاً شديداً فقتل أبرهة، وتفرق جيش أبي حمزة، وتبعهم أهل الشام يقتلونهم حتى دخلوا المسجد.

والتقى أبو حمزة بابن عطية بأسفل مكة، وخرج أهل مكة مع ابن عطية ودارت معركة حامية قتل في نهايتها أبو حمزة على فم الشعب، وقتلت معه امرأته وهي ترتجز وتقول:

أنـا الـجـعـيـداء وبـنـت الأعـلـم من سأل عن اسمي فاسمي مريم
بعت سواريَّ بسيف مخذم

ودعا ابن عطية بالأسرى وكانوا أربعمائة، فقال لهم: ويلكم ما دعاكم إلى الخروج مع هذا؟

قالوا ضمن لنا الكَنّة، يريدون الجنة وهي لغتهم، فقتلهم وصلب أبا حمزة وبعث برأسه إلى مروان، كما صلب أبرهة بن الصباح ورجلين من أصحابهم على فم الشعب، ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بني العباس وحج مهلهل الهجيمي في خلافة السفاح العباسي فأنزل أبا حمزة ليلاً فدفنه.

❖ طالب الحق في المعركة:

لحقت فلول جيش أبي حمزة بعبدالله بن يحيى الكندي وكان لا يزال مقيماً في صنعاء، فخرج قاصداً الحجاز لقتال ابن عطية في جماعة من أصحابه ومن اليمانيين، وبلغ ابن عطية خبره فشخص إليه والتقى به أثناء الطريق فنشب القتال بينهما وكثر القتل وتشاغل أهل الشام بالنهب، فركب طالب الحق فرسه وحمل عليهم حملة فرقتهم وقتل منهم مائة وقائداً من قوادهم يقال له يزيد القشيري، ثم التقوا في غد عند موضع كثير الشجر والكرم فطال القتال واستمر القتل، فترجل عبدالله بن يحيى في ألف فارس فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً، وانهزم الباقون فتفرقوا في كل وجه ولحق من نجا منهم بصنعاء، وبعث ابن عطية برأس عبدالله بن يحيى إلى مروان مع ابنه يزيد بن عبدالملك بن عطية.

❖ الجيش الأموي في شبام:

كتب مروان إلى ابن عطية يأمره بتعقب أصحاب عبدالله بن يحيى في اليمن وحضرموت والقضاء عليهم، فتوجه إلى اليمن في جيش كثيف، فلما

قرب من صنعاء خرج منها عامل عبدالله بن يحيى فدخلها وأقام فيها أشهراً تتبع أثناءها بقية الثوّار وقاتلهم حتى أخضعهم، وخرج عليه يحيى بن عبدالله السباق في جمع كثير فهزمه وقتل عامة أصحابه، وخرج يحيى بن كرب الحميري بساحل البحر وانضم إليه نحو مائة رجل من الإباضية فقاتلهم ثم هربوا إلى حضرموت، وحرضوا عبدالله بن سعيد الحضرمي عامل طالب الحق في شبام على قتال ابن عطية، والتف حوله خلق كثير من كندة ونهد وتميم وهَمْدان واحتشدت الجموع في شبام.

وبلغ ابن عطية الخبر فاستخلف على صنعاء ابن أخيه عبدالرحمن بن يزيد وتوجه بجيشه إلى حضرموت فلقيهم بالكسر، ودارت بينهم رحى الحرب هناك، ولما كان الليل أرسل ابن عطية فرقة من جيشه إلى شبام فوصلوها عند الفجر، فتسوروا السور واحتلوا الحصون وقتلوا من فيها، وعاود عبدالله بن سعيد القتال في النهار دون أن يشعر باحتلال شبام، ولكنه أدرك المكيدة عندما رأى جيوش ابن عطية تتسلل إلى شبام وحاول عبثاً استرداد شبام فلم يستطع.

ثم بدا لابن عطية أن يرسل جيوشه إلى مدن الوادي الأخرى ولكن صده عن ذلك كتاب مروان يأمره بالمسير إلى مكة للحج بالناس، فصالح أهل شبام على أن يرد إليهم ما عرفوا من أموالهم ويولي عليهم من يختارونه، فأجابوه إلى ذلك وتوجه عائداً، فلما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الإباضية فقتلوه ومن معه.

وتزيد بعض الروايات تفصيلاً فتقول: لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج إليه جمانة وسعيد ابنا الأخنس في جماعة من قومهما ورجل من نهد وثلاثة من مراد وخمسة من كندة فقصدوا حيث توجه ابن عطية، فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلاً فقتلوهم جميعاً، وأدرك سعيد وجمانة ابن عطية فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه وقعد سعيد على صدره، فقال له ابن

عطية: هل لك يا سعيد في أن تكون أكرم للعرب أسيراً، فقال: يا عدو الله أترى الله كان يمهلك أو تطمع في الحياة، وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة وبلجاً وأبرهة، ثم قتله وبعث برأسه إلى شبام.

وبلغ الخبر ابن أخيه عبدالرحمن يزيد بن عطية وهو بصنعاء فأرسل شعيباً البارقي في جيش كثيف أغلبه أجلاف قساة همج من سكان جبال اليمن وجاءوا حضرموت من طريق الكسر، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وخربوا دور هينن وقعوظة والمخينيق وحورة وكثيراً من دور شبام، ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا ممن قدروا عليه من الإباضية إلا قتلوه، ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلي الثمينة.

ولم يدم سلطان بني أمية في حضرموت بعد ذلك، فقد طويت صفحة دولتهم بقتل مروان حيث خلفتهم دولة بني العباس، وكان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس السفاح سنة ١٣٢هـ «٧٥٠م» وكان هذا بداية الحكم العباسي في حضرموت.

❖ رثاء طالب الحق:

وفي رثاء عبدالله بن يحيى الكندي وأبي حمزة ومن قتل معهما من الإباضية قال عمرو بن الحصين العنبري هذه الأبيات التي تعتبر في طليعة الشعر العربي:

هَبَّتْ قُبَيل تبلّج الفجر ... هندٌ تقول ودمعها يجري
إذ أبصرت عيني وأدمعُها ... تنهّلُ واكفةً على النحر
أَقَذى بعينك لا يفارقها ... أم عائر أم مالها تذري
أو ذكر إخوان فجعت بهم ... سلكوا سبيلهم على قدر
فأجبتُها بل ذكر مصرعهم ... لا غيره عبراتها يمري
تالله ما في الدهر مثلهمُ ... حتى أكون رهينة القبر

أوفي بذمتهم إذا عقدوا ... وأعفُّ عند العسر واليسر
متأهبون لكل صالحة ... ناهون من لاقوا عن النكر
صُمت إذا حضروا مجالسهم ... من غير ما عيّ بهم يزري
ألا تجيئهمُ فإنهمو ... رجف القلوب بحضرة الذكر
لا ليلهم ليل فتلبسهم ... فيه غواشي النوم بالسكر
كم من أخ لك قد فجعت به ... قوام ليلته إلى الفجر
ظمآن وقدة كل هاجرة ... تراك لذته على قدر
ومبرأ من كلّ سيئة ... عفّ الهوى ذا مِرَّةٍ شزر
والمصطلي بالحرب يوقدها ... بحسامه في فتية زهر
فتخالسوا مهجات أنفسهم ... وعداتهم بقواضب بتر
وتوقدت نيران حربهم ... ما بين أعلى البيت والحجر
وتصرعت عنهم فوارسهم ... لم يغمضوا عيناً على وتر

والقصيدة كاملة في بعض نسخ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني فليرجع إليها من أراد.